النّبـــر والتنغيـــم في ديوان زُهيْرُ بنُ أبِي سُلْمَى

د. الزبير بن محمد أيوب بن محمد يوسف عمر

استاذ مساعد بقسم اللّغويّات – بكلّيّة اللّغة العربيّة

الجامعة الإسلاميّة – بالمدينة المنورة – السعودية

مُقَدِّمَة

الحمد لله وكفى؛ والصّلاة والسّلام على النبي المصطفى؛ وعلى آله وصحبه ومن اهتدى؛ وبعد:

فإنّ قراءة التراث العظيم – الذي خلّفه علماؤنا الأجلاّء – بتمعّنٍ؛ ليوقفنا على مدى ما لهم من وقفاتٍ تعكس براعتهم في التّحليل والتّفسير والاستنباط؛ كما أنه يتعيّن علينا أن نؤصّل ما جاء في تراثنا، ونقدّمه بما يتوافق وحسّ العصر، مع الاهتمام بما يفيد لغتنا في حاضرها ومستقبلها.

والاهتمام بالأداء والنّطق من أهم الجوانب الضرورية في علوم اللغة؛ فدراسة الأصوات، ومعرفة أقسامها، وصفاتها، وما يعرض لها من تأثير؛ هي البداية الأولى لمعرفة وإتقان أيّ لغة من لغات البشر، والأساس الذي تنطلق منه أيّ دراسة لغويّة.

والأداء الصّحيح للغة، ونطقها له أسسٌ ومعايير دوّنها العلماء؛ ينبغي أن تلقّن وتُعرف، فالانحراف عن النطق المتعارف عليه عند أصحاب اللغة؛ يؤدي غالبًا إلى اختلاف المعاني، وتباين المقاصد، ناهيك عن عدم وضوح المعنى؛ لذلك فإنّ معرفة طرق الأداء والنطق الصحيح لا يقل أهمية عن معرفة علم النحو؛ فالأصل في اللغة أن تكون منطوقة، يعبّرُ بها كلّ قومٍ عن أغراضهم.

وتناولي في هذا البحث مفهوميّ "النّبر والتّنغيم؛ لكونهما أكثر اهتمامًا بأثر السّياق في إنتاج المعنى اعتمادًا على معرفة ملابسات النص وظروفه.

واختياري تطبيق ذلك في "ديوان زهير بن أبي سُلمى"؛ لكونه يشتمل علـــى كثير من الحكم والأمثال؛ فضلاً عن أنه لم يُسبق -حسب علمي- دراسة موضـــوع "النبر والتنغيم" في هذا الديوان، والله الموفق والمعين.

خطّة البحث:

يشتمل البحث على مقدّمة، وثلاثة فصولٍ، وخاتمة.

- المقدّمة: وفيها أسباب اختيار الموضوع، وخطة البحث.

- الفصل الأول: التّعريف بالنّبر والتّنغيم، والتّعريف بـــ زهير بن أبي سلمى وديوانه، ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: مفهوم النّبر والتّنغيم، ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: مفهوم النّبر.

المطلب الثاني: مفهوم التّنغيم.

المبحث الثاني: التعريف بـ "زهير بن أبي سُلمى" وديوانه، ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: التعريف بـــ "زهير بن أبي سُلمى".

المطلب الثّاني: التعريف بـــ ديوان زهير بن أبي سُلمى.

- الفصل الثاني: أهمية النبر والتنغيم في تحديد المعاني - وتطبيق ذلك في ديوان زهير بن أبي سلمى-؛ ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: أهمية النبر في تحديد المعنى؛ وتطبيق ذلك في ديوان زهير بن أبي سُلمى.

المبحث الثاني: أهمية التنغيم في تحديد المعنى؛ وتطبيق ذلك في ديوان زهير بن أبي سُلمى.

– الفصل الثالث: دلالة النبر والتنغيم في ديوان زهير بن أبي سلمى، ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: دلالة النبر في ديوان زهير بن أبي سُلمى.

المبحث الثاني: دلالة التنغيم في ديوان زهير بن أبي سُلمى.

– الخاتمة، وتشتمل على أهم النتائج.

ثم فهرسٌ للمصادر والمراجع؛ وفهرسٌ لمحتوى البحث.

وبالله التوفيق والإعانة..

الفصل الأول: مفهوم النبر والتنغيم والتّعريف بـــــ زهير بن أبي سلمى وديوانه

المبحث الأول: مفهوم النبر والتنغيم

المطلب الأول: مفهوم النبر:

النبر لغة:

قال ابن منظور: النَّبْرُ بالكلامِ الهَمْزُ، وكلُّ شيء رفع شيئاً فقد نَبَرَه، والنبْرُ مصدر نَبَرَ الحَرْفَ يَنْبِرُه نَبْراً هَمَزَهُ، وفي الحديث: قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم: يا نَبيءَ الله، فقال: "لا تَنْبِر باسمي" أي لا تَهْمِزْ. وفي رواية: فقال: "إنَّا معْشَرَ قريش لا نَنْبِرُ" والنبْرُ هَمْزُ الحرْفِ ولم تكن قريش تَهْمِزُ في كلامها.

وقال اللحياني: رجل نبار صيَّاحٌ. وقال ابن الأنباري: النبْر عند العرب ارتفاع الصوت يقال نَبَرَ الرجلُ نبْرَةً إذا تكلم بكلمة فيها عُلُوٌّ وأنشد:

إنِّي لأَسمَعُ نبْرَةً من قَوْلِها *** فأَكادُ أَن يُغْشَى عليّ سُرُورا[1]

وكل شيء ارتفع من شيء سمّي نَبْرَةً لانْتباره.

النّبر اصطلاحًا:

المعنى الاصطلاحي للنبر عند علماء اللغة التطبيقي ليس ببعيد عن المفهوم اللغوي؛ إذ هو يعني كما يقول الدّكتور إبراهيم أنيس:

"نشاط في جميع أعضاء النطق في وقتٍ واحدٍ، يترتّب عليه أن يصبح

(١) لسان العرب، لابن منظور ١٨٨/٥، مادة: (نبر). والمصباح المنير، للفيومي ٥٩٠/٢، كتاب: النون.

الصوت عالياً واضحاً في السمع"(١).

ومنهم من قال: إن النّبر هو اسم يعطى للجهد العضلي الأقوى الذي يمكن أن نشعر به متصلاً ببعض المقاطع في مقابل مقاطع أخرى.

ومنهم من عرّفه على أنّه: بروز معطى لمقطع واحد في الكلمة.

فهم يتفقون على أن النبر هو أكثر المقاطع الصوتية بروزًا في الكلمة أو الجملة، ولعل هذا ما أشكل على البعض في دقة التفريق بين النبر والشّدّة والنّغمة والتنغيم.

هذا الإشكال امتد كذلك إلى مترجمي الإنجليزية إلى العربية؛ حيث يترجمون كلمة 'stress' إلى ' شدة ' بينما ينبغي أن تترجم إلي ' نبر'، كما تولد إشكال آخر عند متحدثي العربية والإنجليزية من تطابق اللفظ دون تطابق الرمز للشد stress في العربية والنبر stress في الإنجليزية.

معنى النبر:

أورد بعضُ الباحثين أنّ كثيرًا من اللّغات تُظهر النبر متمثلاً في بروز صوتٍ بشكل ملحوظٍ في صوت أحد عناصر المقاطع الصوتية من بين بقية العناصر(٢).

كما أورد الدّكتور إبراهيم أنيس شرحًا للنبر قال فيه: "النبر هو نشاط في جميع أعضاء النطق في وقت واحد... تعظم لذلك سعة الذبذبات ويترتّب عليه أن يصبح الصوت عاليًا واضحًا في السمع... والمرء حين ينطق بلغته يميل عادةً إلى

(١) الأصوات اللغوية، د. إبراهيم أنيس ص ١٧٠.

(٢) Maha Mohammed Osman: A Descriptive Analysis of B.Ed Syllabus of English at Sudan Universities

الضغط على مقطعٍ خاصٍّ من كل كلمة، ليجعله بارزًا، وأوضح في السّمع من غيره من مقاطع الكلمة، وهذا الضغط هو الذي نسمّيه بالنبر"(١).

وقد يعمد المتحدث إلى كلمة بعينها في جملته فيزيدها نبرًا يميّزها دون غيرها من كلمات تلك الجملة، حتى يعطي وضوحًا أو تأكيدًا أكبر لتلك الكلمة ومعناها في الجملة.

درجات النبر:

أ- نبر أولي وعادة يرمز له بـــ{/}.

ب- نبر ثانوي وعادة يرمز له بـــ{\}.

ج- نبر ضعيف وليس له رمز.

(١) الأصوات اللّغويّ، د. إبراهيم أنيس ص ١٧٠-١٧١.

المطلب الثاني: مفهوم التنغيم

التنغيم لغة:

قال ابن منظور: النَّغْمةُ جَرْسُ الكلمة وحُسْن الصوت في القراءة وغيرها(١).

وقال الرازي: النَّغْمُ بسكون الغين؛ الكلام الخفي، وقد نَغَم من باب ضرب وقطع وسكت فلان فما نغم بحرف وما تَنَغَّمَ مثله وفلان حسن النَّغْمَةِ أي: حسن الصوت في القراءة(٢).

التنغيم اصطلاحًا:

يمكن تعريف التنغيم بأنه: "موسيقى الكلام"(٣).

أو هو: "الإطار الصوتي الذي تقال به الجملة في السياق"(٤).

أو "هو ارتفاع الصوت وانخفاضه أثناء الكلام"(٥).

أو هو: تتابع النغمات الموسيقية أو الإيقاعات في حدث كلامي معين"(٦).

ويعبر عنه برتيل مالميرج: بالنبر الموسيقي في العربية، وهو عبارة عن جملة من العادات الأدائية المناسبة للمواقف المختلفة من تعجب، وسخرية، واستفهام، وتأكيد وتحذير، وغير ذلك من المواقف الانفعالية(٧).

---

(١) لسان العرب، لابن منظور ١٢/٥٩٠، مادة: (نغم).

(٢) مختار الصحاح، للرازي ١/٦٨٨، باب: النون.

(٣) الأصوات اللغوية، ص١٧٥.

(٤) اللغة العربية معناها ومبناها، د. تمام حسان ص٢٢٦.

(٥) مناهج البحث في اللغة، د. تمام حسان ص١٩٨.

(٦) أسس علم اللغة، ماريو باي ص٩٢.

(٧) علم الأصوات، برتيل مالميرج، تعريب د. عبد الصبور شاهين، ص٢٠٩.

أو هو: ارتفاع الصوت وانخفاضه مراعاة للظرف المؤدّي فيه، أو تنويع الأداء للعبارة حسب المقام المقول فيه[1].

وخلاصة القول في تعريف التنغيم:

هو الارتفاع -يعني الصعود- والانخفاض -يعني الهبوط- في درجة الجهر في الكلام، وهذا التغير في الدرجة يرجع إلى التغير في نسبة ذبذبة الوترين الصوتيين، وهذه الذبذبة التي تحدث "نغمة" موسيقية، ولذلك فالتنغيم يدل على العنصر الموسيقي في الكلام، يدل على لحن الكلام، ولكل لغة عادتها التنغيمية أو لحونها.

والفرق بين النّغمة واللحن: أن النغمة يتصف بها مقطع من المقاطع، أما اللحن فهو ما ينشأ عن ترتيب النغمات المتتابعة في المجموعة الكلامية[2].

ومعظم الباحثين قد حدّدوا مستويات التنغيم في مستويين اثنين هما:

أ-مستوى هابط.

ب- مستوى صاعد.

فالأول (أ) يمثل له بالمستوى الصوتي للجملة الخبرية، أما الثاني فيتحقّق في الجملة الاستفهامية، بالإضافة إلى هذين المستويين هناك تصنيفات أخرى حددها بعض الدارسين على شكل أرقام يمكن توضيحها على الشكل التالي:

(١) التجويد والأصوات، د. إبراهيم نجا، ص٨٥.

(٢) علم اللغة، د. السعران ص٢١٠ - ٢١١.

الرقم (١) مستوى منخفظ.

الرقم (٢) مستوى متوسط.

الرقم (٣) مستوى صاعد.

الرقم (٤) مستوى صاعد حادّ جدًا.

ومن المؤكّد أن هذه المستويات الأربعة ليست مطلقة بل تبقى نسبية، ومما لاحظته أن المستوى الرابع محدود الوجود والتوزيع ولا يبدأ به، بمعنى: أنه لفظ وغالبًا ما يوجد في الألفاظ الانفعالية، كالدهشة والحزن والفرح الشديد وغيرها[١].

ويرى دارسون آخرون؛ أنه يمكن وصف مستوى التنغيم انطلاقًا من وجهتي نظر مختلفتين؛ إحداهما على شكل نغمة مقطع وقع عليه النبر في الكلام، والثانية هي المدى الذي بين أعلى نغمة وأخفضها في الصوت سعة وضيقًا، فأمّا من حيث وجهة النظر الأولى، فينقسم تنغيم الفصحى إلى مستويين الأول ينتهي بنغمة هابطة، أما الثاني فينتهي بنغمة صاعدة على المقطع المذكور، وأما من حيث وجهة النظر الثانية فينقسم إلى ثلاثة أقسام هي الواسع والمتوسط والضيق[٢].

(١) المفارقة القرآنية، محمد العبد ص ٥٨.

(٢) اللغة العربية معناها ومبناها، د. تمام حسان ص ٢٢٨.

المبحث الثاني: التعريف بـ "زهير بن أبي سُلمى" وديوانه

المطلب الأول: التعريف بـ "زهير بن أبي سلمى":

هو: زهير بن أبي سُلمى، واسم أبي سلمى ربيعة بن رياح بن قرّة بن الحارث بن مازن بن ثعلبة بن ثور بن هرمة بن الأصم بن عثمان بن عمرو بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار.

ولد في بلاد مُزَينة بنواحي المدينة المنورة، وكان يقيم في الحاجر (من ديار نجد)، واستمر بقاؤه فيه بعد الإسلام.

هو أحد الثلاثة المقدّمين على سائر الشعراء، وحكيم الشعراء في الجاهلية، وفي أئمة الأدب من يفضّله على شعراء العرب كافة.

قال ابن الأعرابي: كان لزهير من الشعر ما لم يكن لغيره: كان أبوه شاعرًا، وخاله شاعرًا، وأخته سلمى شاعرة، وابناه كعب وبجير شاعرين، وأخته الخنساء شاعرة[1].

أقوالٌ عنه:

- قال جرير: هو شاعر الجاهلية.
- وعن ابن عباس رضي الله عنهما " قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليلة مسيره إلى الجابية : أين ابن عباس؟ فأتيته؛ فشكا تخلف علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقلت: أو لم يعتذر إليك؟ قال بلى، قلت: فهو ما اعتذر به، ثم قال: أول من ريثكم عن هذا الأمر أبو بكر، إن قومكم كرهوا أن يجمعوا لكم الخلافة والنبوّة – ثم ذكر قصةً طويلةً ليست من

(١) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ٣/١٧٠.

هذا الباب فتركتها أنا – ثم قال: هل تروي لشاعر الشعراء؟ قلت: ومن هو؟ قال: الذي يقول:

ولو أنّ حمدًا يخلد الناس أخلدوا *** ولكن حمدَ الناسِ ليس بمخلد[1]

قلت: ذاك زهير، قال: فذاك شاعر الشعراء، قلت: وبمَ كان شاعر الشعراء؟ قال: لأنه لا يعاظل في الكلام، وكان يتجنّب وحشي الشعر، ولم يمدح أحدًا إلا بما فيه، قال الأصمعي: يعاظل بين الكلام: يداخل فيه، ويقال: يتبع حوشي الكلام، ووحشي الكلام، والمعنى واحد.

قيل: كان ينظم القصيدة في شهر، ويهذّبها في سنة، فكانت قصائده تسمى: الحوليات[2].

حياته وشعره[3]:

كانت ولادة زهير في بني غطفان، وبين هؤلاء القوم نشأ وترعرع، ومنهم تزوّج مرّتين، في الأولى تزوّج أمّ أوفى التي يذكرها في مطلع معلقته:

بحوْمانَةِ الدرّاج فالمتثلّم *** أمِن أمّ أَوفى دمنةٌ لمْ تكلّم

وبعد طلاقه أم أوفى بسبب موت أولاده منها؛ اقترن زهير بكبشة بنت عمّار الغطفانية ورزق منها بولديه الشاعرين كعب وبُجير.

لكن زهيرًا– كما يفهم من حديثه وأهل بيته– كان من مُزينة؛ وما غطفان إلا جيرانهم، وقِدْمًا ولدتهم بنو مرّة، وفي الأغاني: حديث زهير في هذا الشأن رواه ابن الأعرابي، وأبو عمرو الشيباني، ولم يُر ضرورة إثباته.

---

(١) ديوان زهير، ص٤٩.

(٢) الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني، ١٧٠/٣ – ١٧١.

(٣) ينظر: الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني ١٧٠/٣ – ١٧٢، وتراجم شعراء الموسوعة الشعرية، ص ٣٥٨. والشعر والشعراء، لابن قتيبة ص٦٢ – ٦٣.

ولعلّ البارز في سيرة زهير وأخباره؛ تأصّله في الشاعريّة؛ فقد ورث الشعر عن أبيه وخاله وزوج أمه أوس بن حُجر.

ولزهير أختان هما: الخنساء وسلمى وكانتا أيضًا شاعرتين، وأورث زهيرٌ شاعريته لابنيه كعب وبجير، والعديد من أحفاده، وأبناء حفَدته، فمن أحفاده: عقبة المضرّب، وسعيد الشاعران، ومن أبناء الحفدة الشعراء عمرو بن سعيد، والعوّام ابنا عقبة المضرّب.

ويطول الكلام في وراثة زهير الشعر وتوريثه إياه إذ يكفي في هذا المجال الحوار بينه وبين خال أبيه بشامة بن الغدير الذي قال حين سأله زهير قسمة من ماله: "يا ابن أختي، لقد قسمت لك أفضل ذلك وأجزله" قال: "ما هو؟"، قال: شعري ورثتنيه"، فقال له زهير: "الشعر شيء ما قلته فكيف تعتدّ به عليّ؟"، فقال له بشامة: "ومن أين جئت بهذا الشعر؟ لعلك ترى أنّك جئت به من مُزينة؟ وقد علمت العرب أن حصاتها وعين مائها في الشعر لهذا الحيّ من غطفان، ثم لي منهم وقد رويته عنّي".

وممّا يُذكر في حياته وسيرته؛ أنّه كان من المعمّرين، حيث بلغ عمره في بعض الروايات نحوًا من مئة عام، ومنه استنتج المؤرخون من شعره الذي قاله في ظروف حرب داحس والغبراء؛ أنه ولد في نحو السنة ٥٣٠م.

أما سنة وفاته فتراوحت بين سنة ٦١١ و ٦٢٧م أي: قبل بعثة النبيّ بقليلٍ من الزمن، وذكرت الكتب أن زهيرًا قصّ قبل موته على ذويه رؤيا كان رآها في منامه تنبأ بها بظهور الإسلام، حيث قال لولده: "إني لا أشكّ أنه كائنٌ من خبر السماء بعدي شيء؛ فإن كان فتمسّكوا به، وسارعوا إليه".

أخبار عنه[1]. :

ومن الأخبار المتّصلة بتعمير زهير أنّ النبي صلى الله عليه وسلم نظر إليه "وله مائة سنة" فقال: اللهم أعذني من شيطانه"، فما لاك بيتاً حتى مات، وأقلّ الدلالات على عمره المديد سأمه تكاليف الحياة.

والمتعارف عليه من أمر سيرته؛ صدق طويّته، وحسن معشره، ودماثة خلقه، وترفّعه عن الصّغائر، وأنّه كان عفيف النفس، مؤمنًا بيوم الحساب، يخاف لذلك عواقب الشرّ، ولعلّ هذه الأخلاق السامية؛ هي التي طبعت شعره بطابع الحكمة والرّصانة؛ فهو أحد الشعراء الذين يُتلمس سريرتهم في شعرهم، ويُرى في شعرهم ما انطوت عليه ذواتهم وحناياهم من السّجايا والطبائع، وأكثر الباحثين يستمدّ من خبر زهير في مدح هرم بن سنان؛ البيّنة التي تبرز بجلاء هذه الشخصية التي شرفتها السماحة والأنفة، وزيّنها حبّ الحق والسّداد، والسّعي إلى إصلاح ذات البين بين عبسٍ وذُبيان بعد الحرب الضروس التي استمرّت طويلاً بينهما.

وقد اهتم المستشرقون الغربيّون بشعراء المعلّقات وأولوا اهتمامًا خاصًّا بالتعرف على حياتهم؛ حيث قالت ليدي آن بلنت، وفلفريد شافن بلنت عن زهير بن أبي سُلمى في كتاب لهما عن المعلّقات السبع صدر في بداية القرن العشرين:

شخصيّة زهير نقيض لا مرئ القيس، وطرفة.

وقال عنه دبليو إى كلوستون في كتابٍ من تحريره عن الشعر العربي:

(١) ينظر: الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني ٣/١٧٠ – ١٧٢، وتراجم شعراء الموسوعة الشعرية، ص ٣٥٨. والشعر والشعراء، لابن قتيبة ص٦٢ – ٦٣.

تميّز زهير بن أبي سُلمى منذ نعومة أظفاره بنبوغه الشعريّ، كان المفضّل عند عمه بشامًا، الذي كان بنفسه شاعرًا مشهورًا، لكن عندما أحس العجوز بدنو أجله قسّم أملاكه بين أقاربه ولم يترك لزهير شيئًا، قال زهير: "وماذا أيضًا، ألم تترك قسطًا لي؟

" أجاب العجوز: "كلاّ، تركت لك أفضل ما عندي، موهبتي في نظم الشعر".

قال زهير: "هذه خاصّتي منذ البداية"، لكن العجوز رد: "ليس صحيحًا، يعلم العرب جيدًا أنها جاءتك مني".

المطلب الثاني: ديوان زهير بن أبي سُلمى

لم يعرف الشعر الجاهليّ شاعرًا امتاز باهتمامه بالشعر وتنقيحه له كـ زهير، ولا أدل على ذلك من أنه كان لا يخرج بالقصيدة إلى الناس إلا بمضي عام كامل عليها، في مدّةٍ ينظمها، وفي مدّةٍ أخرى يقلِّب نظره فيها، ويتأمل سبكها؛ ليُخرج فيما بعد قصيدة ذات رونق خاص امتاز به زهير عن شعراء الجاهلية جميعهم.

وإذا ما أردت أن تَعرض ديوان زهير؛ فإنك تجد أغراض الشعر لديه تناولت موضوعاتٍ عدّة، كان جلها في المدح والنسيب والهجاء، ووصف الصيد، ويتخلل ذلك شيء من الحِكم والأمثال، ووصف لمكارم الأخلاق.

وقد طبع ديوان زهير بن أبي سلمى مراتٍ عديدة، وأقدم هذه الطبعات تلك الطبعة التي كانت ضمن مجموعة العقد الثمين، إلى جانب خمسة شعراء جاهليين آخرين، وهي باسم "طبعة الوارد".

ثم طبع الديوان طبعة أخرى بإشراف "لندبرج" السويديّ، وذلك بشرح الأعلم الشّنتمريّ عام ١٨٨٩م.

وبعد ذلك طبع في مصر، ثم نشره السقا في مجموعته "مختار الشعر الجاهلي".

وجلّ هذه الطبعات اعتمد على نسخة برواية الراوية البصريّ الأصمعي؛ بيد أن هناك رواية كوفيّة لثعلب، وهذه الأخيرة متأخرة الانتشار حيث صدرت طبعتها الأولى سنة ١٩٤٤م، ولكن الأولى تمتاز بضبط وحزم وتشدد بالرواية[١].

(١) ديوان زهير بن أبي سلمى، شرح حمدو طماس، دار المعرفة، ص٦ – ٨، بتصرف.

الفصل الثاني: أهمية النبر والتنغيم في تحديد المعاني وتطبيق ذلك في ديوان "زهير بن أبي سُلمى"

المبحث الأول: أهمية النبر في تحديد المعنى – وتطبيق ذلك في ديوان زهير بن أبي سلمى–

في حديثهم يستخدم الناس النبر كثيرًا، وفي كل اللّغات يتجلى النبر عند أهل اللغة دون متحدثي تلك اللغة من غير أهلها؛ فإذا سمعت إنجليزيًّا يتحدث العربية وقع عندك أن هذا المتحدث غير عربيّ اللّسان؛ وإن كانت كلماته صحيحة، وتركيباته اللغوية سليمة.

وهذا الانطباع يأتيك ليس من عدم تمكنه –غالبًا– من إخراج الأصوات من مخارجها الدّقيقة كما عند أهل اللغة؛ ولكن أيضًا من اختلاف مواقع النبر عنده عن تلك التي يضعها أصحاب اللغة الأصليون؛ "فنطق اللغة لا يكون صحيحًا إلا إذا روعي فيه موضع النبر"(١).

وعلى الرغم من أهمية النبر في الكلام، كما جاء عند الزركشيّ(٢)؛ إلا أن تلك الأهمية لم تجد صدىً في الكتابة، ولعل القراء كانوا فيما سبق ينبرون دون عناء، وترتفع أصواتهم تلقائيًّا إذا لزم الأمر؛ لكن بالنظر إلى مستوى القراءة اليوم يُعلم أن عدم وضع النبر على مكانه الصحيح؛ يؤدي إلى كثيرٍ من الغلط، وسوء الفهم.

---

(١) الأصوات اللغويّة، د. إبراهيم أنيس ص١٧١.

(٢) البرهان في علوم القرآن، بدر الدين بن أحمد الزركشى جزء ١. ص ٥٣٠-٥٣١

وتكمن أهمية النبر أيضًا في أن عدم المعرفة به، والنبر الخطأ؛ قد يؤدي إلى تغيّر معنى الكلام وتشويهه، وقد نبه على ذلك يوسف الخليفة، فقال:

"قد يؤدي النبر الخاطئ في الكلمة أو الجملة إلى تشويه المعنى في القرآن.... ومن هذا يبدو أن للنبر أهمية كبيرة شأنه في بعض الكلمات شأن الحروف الصحاح والحركات"(١).

وبالرغم من أنّ النبر في العربية لا يؤثر غالبًا في تحديد معاني الكلمات في الجمل؛ فإن له دورًا لا يمكن إهماله في ذلك؛ لأنّه يمكن من خلاله التفريق بين الصيغ أو المعاني؛ بحيث لا يفهم المراد إلا بوجود النبر، وكذلك يمكن من خلاله التفريق بين الاسم والفعل، والتأكيد على الدلالة والانفعال.

ولعل من أوضح الأمثلة التي تبيّن طبيعة النبر وأهميته في تحديد المعاني؛ ما ورد في ديوان زهير بن أبي سُلمى، وسأضرب لذلك عدّة أمثلة:

١- قال زهيرٍ في ديوانه:

بَلِّغْ قَبائلَ شَتَّى في مَحَلِّهِمُ *** وقد يَجِيءُ رَسُولُ القَومِ بالخَبَرِ(٢)

حيث يكمن أهميّة النبر في تحديد المعنى في قوله: (رَسُولُ القوم)، فالفرق بينه وبين أنّه لو قال: (رسولو القوم) دون استعمال النبر؛ فكأنه يتحدث عن جميع رسل القوم؛ أمّا حينما قال: (رسُولُ القوم)، باستعمال النبر؛ فدلّ على أنه يتحدث عن رسولٍ واحد، فأتى النبر هنا ليفرق بين جملتين: فإذا أردت الجملة الأولى (رسُول القوم)؛ يجب أن يكون النبر على "رس" وربما يكون النبر على "و"، أما إذا أردت الجملة الثانية (رسولو القوم)؛ فيجب أن يكون النبر على "لل"؛ ليدل على أن

(١) أصوات القرآن، يوسف الخليفة أبو بكر ص ٢٩

(٢) انظر: ديوان زهير بن أبي سلمى، ص٦٣.

أصلها "لول"، ولكن حذفت الواو لمنع توالي الساكنين على الواو واللام، فتلفظ: (رسوللقوم)، وهكذا يتضح أهمية النبر في تحديد المعنى.

٢- قال زهير:

مُبَــارَكُ البَيــتِ مَيمُونٌ نَقِيبَتُهُ *** جَزلُ المَواهِبِ مَن يُعطِي كمن يَعِدُ[١]

وما قيل في المثال الأول، يقال كذلك في هذا المثال؛ فقوله: (مبارك البيت)، يمكن أن تقرأ بالنبر (مُبَارَكُ البَيتِ)، ويمكن أن تقرأ بدون نبر هكذا (مباركو البيت)، والمعنى يختلف في هذا عن ذاك.

ومن هنا يمكن القول إلى أن النبر له أهمية كبيرة في التفريق بين الاسم والفعل.

٣- قول زهير أيضًا:

تَطِيحُ أكُــــفُّ القَــــومِ فيها كأنَّما *** تَطيحُ بها في الرَّوعِ عِيدانُ بَرْوَقِ[٢]

فقوله: (أكُفُّ القَومِ)، يمكن أن تقرأ بالنبر، على أنه اسم، ويمكن أن يقرأ بدون نبر (أكفو القوم) على أنه صفة، فالنبر يحدّد المراد في كلا المثالين.

(١) ديوان زهير بن أبي سلمى، ص٤٣.

(٢) ديوان زهير بن أبي سلمى، ص٧٢.

المبحث الثاني: أهمية التنغيم في تحديد المعنى – وتطبيق ذلك في ديوان زهير–

للتنغيم أهمية كبيرة في تحديد المعنى؛ فقد جاء في البيان والتبيين:

"والصوت هو آلة اللفظ والجوهر الذي يقوم به التقطيع، وبه يوجد التأليف ولن تكون حركات اللسان لفظًا ولا كلامًا إلا بالتقطيع والتأليف وحسن الإشارة باليد والرأس، ومن حسن البيان باللسان مع الذي يكون مع الإشارة من الدل والشكل والتفتل والتثني"(١).

وإشارة الجاحظ دليلٌ على أهمية التنغيم في السياقات التنظيمية للمتكلم، وهي بعد ذلك التفاتة واضحة المعالم إلى الجرس الصوتي الذي يرافق الحركة أثناء تأدية الفعل الكلامي. ويسميه الدكتور "إبراهيم أنيس": موسيقى الكلام(٢)، وينعته الدكتور "محمود السعران" بقوله: "المصطلح الصوتي الدال على الارتفاع والانخفاض في درجة الجهر في الكلام"(٣).

ويقرن الدكتور "تمام حسان" التنغيم في الكلام المنطوق ويماثله من حيث الأهمية؛ بالترقيم في الكلام المكتوب قائلًا: "غيرَ أنّ التنغيم أوضح من الترقيم في الدلالة على المعنى الوظيفي للجملة"(٤).

فإذا كانت علامات الترقيم ضوابط رمزية عالمية تميّز المكتوب وتستجلي مكنوناته الجمالية بما تقوم به من وظيفة دلالية في تحديد المعنى وإظهار الفوارق

(١) البيان والتبيين، الجاحظ ٧٩/١.
(٢) الأصوات اللغوية، د.إبراهيم أنيس ص١٧٦.
(٣) علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، د.محمود السعران ص٢١٠.
(٤) اللغة العربية معناها ومبناها، د.تمام حسان ص٢٢٦.

الأسلوبية التي تمكن القارئ من فهم النص وإدراك فحواه؛ فإن التنغيم هو ما يميز لغة الخطاب عن اللغة المكتوبة باعتباره موسيقى الكلام، هذه اللغة الموسيقية العالمية التي اتخذتها كل لغات العالم أساسًا في التواصل بين الأفراد خطابًا ومحادثة، فكان القلق النابض لكل اللغات الحية التي اكتسبت منها رونقها وجمالها.

فالتنغيم أكثر أهمية من الترقيم فبالإمكان متابعة الكلام المكتوب دون ترقيم، ولكن مع الكلام المنطوق تظهر أهمية التنغيم في إبراز القيم الدلالية في الفعل الكلاميّ، فالتنغيم تنويع في درجات الصوت خفضًا وارتفاعًا في الوحدة الدلالية مهما تنوعت مقاطعها وظهورها ضمن سياق الكلام.

ومما يؤكد على أهمية التنغيم؛ أنّه يعد قيمة استبدالية عن الغرض القصديّ للمتكلم، وهذا يلاحظ في الأمثلة التالية:

١- قول زهير:

لِمَنِ الدِّيـــــــارُ، غَشِيتَـــــها بالفَدفَدِ *** كالوَحيِ في حَجَرِ المَسِيلِ المُخْلِدِ[١]

فيقرأ الاستفهام في البيت بصورتين تنغيميتين، الأولى: (لمن الديار؟) بنغمة الاستفهام، وجملة: (غشيتها بالفدفد..) تقرأ جملة واحدة على التقرير، وتقرأ أيضًا على التعجب والاستهجان: (لِمَنِ الدِّيارُ! غَشِيتَها بالفَدفَدِ..)، والتنغيم هو الذي يحدد السياق أو المعنى المراد في ذلك كله.

٢- قوله:

ألم تَرَ أنَّ النّاسَ تَخلُدُ بَعدَهُم *** أحادِيثُهُم والمَرءُ ليسَ بِخالِدِ[٢]

(١) ديوان زهير بن أبي سلمى، ص٤٥.

(٢) المصدر السابق، ص٤٩.

فيمكن أن يقال: (ألم تَرَ أنَّ النّاسَ تَخلُدُ بَعدَهُم *** أحادِيثُهُم)، على أنها جملة استفهامية، وتكون جملة (والمرء ليس بخالد) جملة تقريرية. هذه صورة تنغيمية.

ويمكن أن تقرأ ذلك بصورة تنغيمية أخرى، فتقول: (ألم تَرَ أنَّ النّاسَ تَخلُدُ بَعدَهُم *** أحادِيثُهُم والمَرءُ ليسَ بِخالِدِ) على أنها جملة استفهامية.

ويمكن أيضًا أن يكون هذا الاستفهام المقصود به التعجب، وهذا كله يتوقف على الصورة التنغيمية التي يُنطق بها البيت.

٣- قوله:

جَرَتْ سُنُحًا فقلتُ لها: أجِيزي *** نوىً شمُولةٌ فمتى اللِّقاءُ[١]

فقوله: (فمتى اللقاء)، يقرأ بصورة تنغيمية على أنه استفهام، ويراد منه معرفة موعد اللقاء، ويمكن أن يقرأ بصورة تنغيمية أخرى -وهو المراد في البيت- على أنه تمنّي، (فمتى اللقاء)، فهو يتمنى أن يكون اللقاء قريبًا، وهذا أو ذاك يتوقّف على الصورة التنغيمية التي يقرأ بها الاستفهام في البيت.

٤- قوله أيضًا:

يُحِيلُ في جَــدولٍ تَحبُو ضفادِعُهُ *** حَبْوَ الجوارِي تَرَى في مائهِ نُطُقا[٢]

فقول زهير: (ترى في مائه نُطُقًا)، جاء في هذا البيت جملة خبرية، فيقرأ بصورة تنغيمية على أنه جملة خبرية، أي: أن الماء في هذا الجدول له نطقا، هذه صورة تنغيمية.

---

(١) السّابق، ص١٤.

(٢) ديوان زهير، ص٧٤.

ويمكن أن يقرأ بصورة تنغيمية أخرى على أنه استفهام، فتقول: (ترى في مائه نُطْقًا؟) أي: هل ترى أن الماء في هذا الجدول له نطق؟ ويمكن أن يقرأ على أنه تعجب فتقول: (ترى في مائه نطقا!)، وهذا كله يحدده التنغيم.

فقد عُلم في هذه النماذج المذكورة؛ كيف أن للتنغيم أهمية كبرى في فهم المعنى؛ بل إن له أهمية أكبر من الترقيم.

الفصل الثالث: دلالة النبر والتنغيم في ديوان "زهير بن أبي سُلمى"

المبحث الأول: دلالة النبر في ديوان "زهير بن أبي سُلمى"

عندما ينطق المرء بلغته؛ يميل عادةً إلى الضغط والاتّكاء على مقطعٍ خاص من كلّ كلمة، ليجعله بارزًا، وأكثر وضوحًا عن غيره من مقاطع الكلمة؛ ذلك هو ما يسمّى بالنبر. ولا يكون النطق صحيحًا إلا إذا روعي فيه موضع النبر كما سبق؛ وإن كانت معاني الكلمات العربية لا تختلف باختلاف مواضع النبر فيها – كما تختلف في اللغة الإنجليزية –؛ إلاّ أنّ وضع النبر على كلمة بعينها في الجملة العربية قد يغيّر في المعنى الإجماليّ للجملة؛ وإذا لم يغير في المعنى فهو على أقلّ تقديرٍ يؤذي أذن السامع.

ويعتبر النبر مظهرًا من مظاهر الدلالة الصوتية؛ فالمعنى قد يتغير باختلاف موقع النبر من الكلمة، والنبر هو "وضوح نسبي لصوت أو مقطع؛ إذا قورن ببقية الأصوات والمقاطع في الكلام"، وفي بعض اللغات يعدّ النبر فونيمًا؛ لأنه يفرّق بين معنىً وآخر.

وليس النبر بأقل أثرًا من التنغيم في الكشف عن المعنى الدلاليّ، وذلك أن بعض أنواع النبر، وهو عنصر صوتي يقع على بعض مقاطع الكلمة الواحدة؛ يؤدّي دور بعض الوظائف النحوية[1].

(١) ينظر : الدلالة والنحو ص ١٢٣_١٢٤، ومناهج البحث في اللغة للدكتور تمام حسان ص ١٦١_١٦٢ ، وعلم اللغة للسعران ص ٢٠٨_٢٠٩ ، والدلالة اللغوية عند العرب ص ١٧٢_١٧٦.

وقد أشار إلى ذلك ابن جني؛ إذ قد تحذف الصفة وهي مرادة؛ اعتمادًا على النبر، حيث قال: "وقد حذفت الصفة، ودلّت الحال عليها، وذلك فيما حكاه صاحب الكتاب من قولهم:" سير عليه ليل"، وهم يريدون، ليل طويل، وكأنّ هذا إنما حذفت فيه الصفة لما دلّ من الحال على موضعها، وذلك أنك تحسّ في كلام القائل لذلك من التطويح والتطريح والتفخيم والتعظيم ما يقوم مقام قوله: طويل، أو نحو ذلك، وأنت تحسّ ذلك من نفسك إذا تأملته، وذلك أن تكون في مدح إنسان والثناء عليه، فتقول: كان والله رجلاً! فتزيد في قوة اللفظ بـــ(الله) هذه الكلمة، وتتمكّن في تمطيط اللام، وإطالة الصّوت بها وعليها، أي: رجلاً فاضلاً أو شجاعًا أو كريمًا، أو نحو ذلك.

وكذلك تقول سألناه، فوجدناه إنسانًا، وتمكّن الصوت بإنسان وتفخّمه، وتستغني بذلك عن وصفه بقولك: إنسانًا سمحًا أو جوادًا، أو نحو ذلك..." [1].

والنص نفيسٌ في بيان أثر النبر في بيان المعنى الدّلاليّ.

وفيما يلي بعض الأمثلة لدلالة النبر في ديوان زهير بن أبي سُلمى.

١- قول زهير:

وملجمنا ما إنْ ينالُ قذالهُ *** ولا قدماهُ الأرضَ ، إلاّ أناملهْ[2]

وقوله:

ما إنْ يكادُ يُخَلّيهِمْ لوِجْهَتِهِمْ *** تَخالُجُ الأمْرِ ، إنّ الأمرَ مُشتَرَكُ[3]

وقوله:

(١) الخصائص، لابن جني ٢/٣٧٢_٣٧٣.

(٢) ديوان زهير، ص٢٨.

(٣) المرجع السابق، ص٣١.

وما إن أرى نفسي تقيها كريمتي *** وما إن تقي نفسي كريمةَ ماليا(١)

فالأداء المستقيم لـــ "ما إن"في هذه الأبيات الثلاثة "متْفا" أو مستفـــ" يكون بالضَّغط على حركة الْميم وحركة الْهَمزة كصيغة "فِعْلِن"؛ لِيَستقيم معنى البيت، فإنْ لَم يَحْدث ضغْطٌ فسيلتَبِس "ما إن" بـــ"ماءٍ"، وهذا سيؤدِّي إلى التباس كلمتين بكلمة واحدة، وحرفَيْن بـــ"اسم"، والتباس المعنى أيضًا.

وللخروج من هذا الالتباس؛ لابد من نبر الميم في "ما"، والهمزة في "إن".

٢- قوله:

سَئِمتُ تَكاليفَ الحَياةِ ، وَمن يعِشْ *** ثمانِينَ حَوْلاً لا أبَا لكَ يَسْأمِ(٢)

فالتفعيلة الأخيرة في البيت "فَعِلاَتُنْ" يُقابلها "نَ حَوْلاً لا"، وينبغي الضَّغط على حركة الحاء، وحركة اللام كصيغة "فِعْلِن"؛ ليتَّضِح انفصالُهما، أمَّا عدم الضغط؛ فقد يؤدِّي إلى فسادٍ على جَميع المستويات، فيلتبس "حَوْلاً لا" بـــ "حولى"، ويترتَّب على ذلك التباس المعنى، والتباس كلمتين بكلمة واحدة؛ لذلك كان للنبر دلالة كبيرة في تحديد المعنى.

٣- قوله:

سَوَاءٌ عَلَيْهِ أيَّ حينٍ أتَيْتَهُ ، ** أساعةَ نحسٍ تتّقى أم بأسعدِ(٣)

فقوله: (أم بأسعدِ)، لابد فيه من نبر الميم في "أم"، حتى تتضح أنها نهاية كلمة أخرى غير "بأسعد"، أما إذا لم تنبر فسيصير المعنى "أمب أسعد"، وهذا فساد كبير في المعنى.

(١) السابق، ص٤٨.

(٢) نفسه، ص٥.

(٣) ديوان زهير، ص٤٤.

٤- قوله:

يطلب بالوتر أقوامًا فيدركهم *** حينًا ولا يدركُ الأعداءَ بالدّمن[١]

فنبر "الباء" في قوله: "يطلب"، ضروري حتى يتّضح أنّ الباء جزء من الكلمة السابقة، بخلاف الباء في الكلمة الأخرى "بالوتر"، أما إذا حذف النبر فإنّ المعنى سيختلف، فيصبح "يطلب الوتر أقواما فيدركهم"، أي: أن الوتر هو الذي يطلب أقوامًا، وهذا معنى خاطئ، أما المعنى الصحيح مع وجود النبر: "يطلب بالوتر أقومًا" فالوتر هنا وسيلة، وليست طالبًا.

* فهذه أمثلة لضرورة النبر، وبيان أن له أهمية كبرى، ودلالة عظيمة يتوقف عليها المعنى، وحذفه يمكن أن يؤدي إلى فساد المعنى.

وفيما يلي أمثلة أخرى من ديوان زهير بن أبي سُلمى، في ضرورة عدم النبر، وكون ذلك يؤدي إلى اختلاف المعنى:

١- قول زهير:

لـــهم راحٌ ، وراووقٌ ، ومسكٌ ** فلَيـــسَ لِما تَدِبّ لَهُ خَفَاءُ[٢]

وقوله:

فقالَ لهمْ خيرًا ، وأثنى عليهمُ ** وودعهمْ ، وداعَ أنْ لا تلاقيا[٣]

وقوله:

فأبْلِغْ إن عَرَضْتَ لهمْ رَسُولاً ** بني الصّيداء ، إن نفعَ الجوارُ[٤]

---

(١) المرجع السابق، ص١٣٠.

(٢) السابق، ص١٤.

(٣) ديوان زهير، ص٥٠.

(٤) المرجع السابق، ص٥٢.

المبحث الثاني: دلالة التنغيم في ديوان زهير بن أبي سلمى:

للتنغيم دلالة كبيرة في تحديد المعنى؛ فالوظيفة الدلالية يمكن رؤيتها لا في اختلاف علو الصوت فحسب؛ ولكن في اختلاف الترتيب العام لنغمات المقاطع(١).

وقد أكد الدكتور تمام حسان هذا بقوله حينما تحدث عن التنغيم، فقال:

"وربما كان له وظيفة نحوية هي تحديد الإثبات والنفي في جملة لم تستعمل فيها أداة الاستفهام، فتقول لمن يكلّمك ولا تراه: أنت محمدٌ، مقررًا ذلك، ومستفهمًا عنه، وتختلف طريقة رفع الصوت وخفضه في الإثبات عنها في الاستفهام"(٢).

فدلالة التنغيم تظهر في الجمل المنطوقة فـ(كم) تكون استفهامية، وتكون خبرية، والذي يحدد ذلك هو النغمات الصوتية التي يتم بها الأداء.

ومن مظاهر التّنغيم أيضًا؛ أنه يزيل اللبس عن معنى الجملة، وبه يُدرك الفرق بين المعاني؛ فالمتكلم قد يهدف بحديثه وتتابع نغمات كلامه؛ العتاب، أو الاستحثاث، أو لفت النظر، إلى غير ذلك.

وقد أشار المبرّد إلى ذلك، حيث ذكر أن المتكلّم يحدد معنى الجملة من خلال الإطار الصوتي الذي يضعها فيه، فيوظّف التنغيم للتعبير عن المعاني النحّوية، فالجملة الاستفهامية قد تخرج عن معناها، وتحمل معاني أخرى، كالتوبيخ، والإنكار، بوساطة تنغيم خاصّ تؤدّى به، وذلك قولك: (أقيامًا وقد قعد الناس؟)(٣)

---

(١) مناهج البحث، د. تمام حسن ص١٦٤.

(٢) المرجع السابق، ص١٦٤.

(٣) المقتضب، للمبرد ٢٢٨/٣.

لم تقل هذا سائلاً، ولكن توبيخًا لما هو عليه، والقرينة التي كانت لها أداة الاستفهام (أ) هي المعنى والتنغيم المعبّر عنه، وبهذا تجردت الجملة من معنى الاستفهام، مع توافر قرينة الاستفهام اللفظية المعروفة إلى التوبيخ، وذكر ابن جني أنّ لفظ الاستفهام إذا ضامّه معنى التعجب استحال خبراً[1]، وذلك قولك: (مررت برجلٍ أيّ رجل)، فأنت الآن مخبر بتناهي الرجل في الفضل، ولست مستفهمًا، وكذلك قولك: (مررت برجل أيّما رجل)؛ لأن همزة (ما) زائدة، ثّم يقول متابعًا، ومن ذلك لفظ الواجب إذا لحقته همزة التقرير عاد نفيًا، وإذا لحقت لفظ النفي عاد إيجابيًا، وذلك كقوله تعالى: ﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي ﴾[2].

أي: ما قلت لهم، و يُستبعد أن يكون قصد ابن جني أنّ هذه الهمزة بذاتها هي التي أفادت النفي، ويمكن القول: إنه لدخول هذه الهمزة على الجملة التقريرية؛ غيّرت من طريقة تنغيمها، وغيّرت من دلالتها؛ فأصبحت تفيد النفي بدلاً من التقرير.

وقد زخر ديوان زهير بن أبي سُلمى بكثير من مواضع التنغيم المختلفة؛ وذلك لكثرة الحكم والمواعظ والأمثال في ديوانه.

وفيما يلي بعضًا من صور دلالة التنغيم في ديوانه:

١- قول زهير:

ألم تر أنّ النّاس تخلدُ بعدَهم *** أحاديثُهم والمرءُ ليس بخالدِ[3]

(١) الخصائص، لابن جني ٢/٣٧٠-٣٧١.

(٢) سورة المائدة، (١١٦).

(٣) ديوان زهير، ص٤٩.

فقوله: (ألم تر أن الناس تخلد بعدهم أحاديثهم؟..)، يأتي في صورة دلالة تنغيمية تدل على الاستفهام، فيكون المعنى: هل تعلم أنّ الناس تخلد أحاديثهم بعدهم؟.

ويأتي أيضًا في صورة دلالة تنغيمية تدل على غير الاستفهام، كالتعجب مثلاً من أمر هؤلاء الذين يخلد أحاديثهم بعد موتهم!

ويأتي أيضًا في صورة دلالة تنغيمية أخرى تدل على التقرير؛ فالاستفهام هنا (ألم) تقريريّ، وكأنه يقر هذا الكلام، وهو أنّ أحاديث الناس تخلد بعدهم، فكأنّ هذا الأمر قد ثبت واستقر عنده.

وهذه الصور الدلالية تتوقف على نطق المتكلم بها، فحسب الصورة التنغيمية التي ينطق بها المتكلم؛ يكون المعنى، وتكون الدلالة.

٢- قول زهير:

أثويتَ أم أجمعتَ أنك غادي؟ *** وعدّاك عن لُطفِ السؤال عوادي[١]

حيث إن صورة الاستفهام في البيت (أثويت أم أجمعت أنك غادي؟)، تأتي أيضًا في صور تنغيمية عدة، منها:

أنها تأتي في صورة الاستفهام الحقيقي، أي: هل أقمت وزعمت الأمر على ذهابك وشغلك الشاغلون عن لطف السؤال؟ فيأتي هذا في صورة دلالة تنغيمية تعبر عن الاستفهام الحقيقي حول هذا الأمر.

وقد يكون الاستفهام هنا المراد به الإنكار، وكأنه يستنكر عليه أنه أجمع أمره وعزم على الذهاب، وهذا يتوقف على الصورة التنغيمية، فحسب النطق يكون

(١) المرجع السابق ص٤٩.

المعنى؛ حيث إن أداة الاستفهام في هذا البيت هي (الهمزة)، وقد علم عند علماء اللغة أن الهمزة في الاستفهام تستعمل في عدة معانٍ كالإنكار، والتوبيخ، والتهكم، والأمر، والتعجب، والاستبطاء، وغير ذلك من الصور(١).

فمعنى البيت يظل متأرجحًا بين الاستفهام والإنكار إلى أن يأتي التنغيم فيكون فيصلاً حاكمًا بين المعنيين.

ولا يتوقف الأمر على ذلك فحسب؛ وإنّما يتعداه إلى كون التنغيم فيصلًا مهما يقف إلى جانب عناصر السياق والمقام؛ ليميز الأغراض المختلفة للجمل الاستفهامية، وممّا يجدر ذكره هنا أنّ البلاغيين قد تتبعوا الأغراض المجازية للاستفهام؛ فوجدوا أنها تزيد على ثلاثين غرضًا بلاغيًا(٢).

٣- قول زهير:

فلأنت تفري ما خلقت، وبعض *** القوم يخلق ثم لا يفري(٣)

فالقارئ لهذا البيت يمكن أن يتصور له عدة صور تتوقف جميعها على الصورة التنغيمية التي ينطق بها المتكلم، فمن الممكن أن يكون هذا البيت مدح، فيأتي بصورة تنغيمية مرتفعة، والمعنى: أنه يمدحه أنه إذا تهيأ لأمر مضى له وأنفذه دون تردد أو عجز.

كما يمكن للقارئ حمل المعنى في هذا على التقرير، إذ إنه استقر عنده الأمر على هذا، أي: أنه يمضي لما عزم عليه دون تردد أو عجز، فيقرّه على ذلك.

---

(١) ينظر: مجلة الفتح، العدد الرابع والعشرون، ستار فليح حسن ٢٠٠٥، بحث: همزة الاستفهام وخصائصها، ص٩.

(٢) ينظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ١٨١/١ - ١٩٤.

(٣) ديوان زهير، ص٥٦.

ومن الممكن حمل المعنى على الإخبار، أيضًا، وهذا كله يتوقف على الصورة التنغيمية التي ينطق بها المتكلم، فحسب الصورة التنغيمية تكون الدلالة.

٤- قول زهير:

ولأنت أشجعُ حين تتجه الأبــ *** ــطال من ليث أبي أجري

فظاهر البيت هنا المدح، فيُقرأ بصورة تنغيمية تدلّ على المدح؛ لكنه أيضًا من الممكن أن يقرأ بصورة تنغيمية أخرى تدل على التقرير، أو على التعجب، فيتعجب من شجاعته حين ملاقاة الأبطال، أو يقره على ذلك الشجاعة.

٥- قوله:

بلغ قبائل شتى في محلهم *** وقد يجيء رسول القوم بالخبر

لولا سنان ودفع من حموته *** ما زال منكم أسير عند مقتسر[١]

فقوله: (بلغ قبائل شتى في محلهم)؛ أمر، لكن المراد الحقيقيّ منه المدح، فهو المعنى الحقيقي المراد من البيتين، لكن لابد لكي يتضح هذا المعنى من مراعاة الأداة التنغيمية عند قراءة هذين البيتين، وإلا يمكن أن يُقرأ على أنه فعل أمر، وبهذا يتغير المعنى المراد من البيتين.

٦- قول زهير:

رأيتك عِبتني وصددتَ عني *** وكيف عليكَ صبري واصطباري

فالقارئ لهذا البيت يدرك معنى الإنكار في صورة استفهام، فقوله: (رأيتك عِبتني وصددتَ عني؟)، استفهامٌ المقصود منه: الإنكار، فهي -أي: أم كعب- تستنكر على زهير صدوده عنها ورميها بالعيب؛ لكنها أوردت هذا الإنكار في

(١) ديوان زهير، ص٦٣.

صورة استفهام، ولكي يتّضح المعنى من هذا أو ذاك -أي: الاستفهام أو الإنكار-؛ لابد من مراعاة الصورة التنغيمية الدالة على المعنى المراد.

وقد يراد منه الإخبار، والذي يحدد أيًّا من هذه المعاني؛ هي الطريقة التي يتم بها أداء التنغيم الصوتي، فإذا استعملت النغمة المرتفعة في نطق البيت فإن ذلك يدل على الاستفهام المراد به الإنكار، أما إذا استعملت نغمة مستوية في نطق البيت كان المراد هو الإخبار، وهكذا..

أيضًا في الشطر الثاني من هذا البيت، قوله: (وكيف عليك صبري واصطباري؟)

حيث ورد التعجب في صورة استفهام، فهي تتعجب لصبرها على زهير رغم إعراضه وذوده عنها، ومع ذلك هي صبرت على هذا الصدود!

لكن لابد أيضًا من مراعاة الصورة التنغيمية الدالة على التعجب؛ حتى يستقيم المعنى.

والمناسب لهذا المعنى هنا: أن تكون نغمة الأداء مرتفعة صاعدة لتؤدي إلى إيصال معنى التعجب من اصطبارها وصبرها على زهير؛ في مقابل صدوده وبعده عنها، فلابد من صعود النغمة وارتفاعها ليعبّر عن ملئ النفي عجبا من صنعها في مقابل صنعه.

٧- قول زهير:

يا صاحبيّ انظرا والغور دونكما *** هل يَبْدَوَنّ لنا فيما نرى الجمد[١]

(١) ديوان زهير، ص٤٢.

فقوله: (هل يبدونّ لنا فيما نرى الجمد)، استفهام إنكاري، ولكن حتى يُفرّق بينه وبين الاستفهام الحقيقي لابد من مراعاة أداء الصوت، والصورة التنغيمية التي ينطق بها المتكلم هذا البيت؛ لأنه يمكن حمل الاستفهام هنا على الفخر، ويمكن حمله أيضًا على الاستفهام الحقيقي، وكلّ يتوقف على الأداء الصوتي والدلالة التنغيمية لقراءة البيت.

٨- قول زهير:

فلا تَكْتُمُنّ اللهَ ما في صُدوركُم *** لِيَخْفَى وَمَهما يُكْتَمِ اللهُ يَعْلَمِ[١]

حيث جاء النهي في هذا البيت: (لا تَكْتُمُنّ اللهَ ما في صُدوركُم *** لِيَخْفَى)؛ ليفهم منه أنه نهي حقيقي، فيقرأ بصوتٍ مستوي ليفهم منه النهي الحقيقي، ولكن هناك دلالة أخرى تفهم من هذا النهي؛ وهي التحذير، فإذا قُرأ هذا البيت بصوتٍ مرتفعٍ دلّ على التحذير، بدليل قوله بعد ذلك: (وَمَهما يُكْتَمِ اللهُ يَعْلَمِ)، فهذا المعنى أو ذاك يتوقف على الأداة التنغيمية التي ينطق بها البيت.

٩- قوله:

فقلت والديار أحيانًا يشط بها *** صرف الأمير على من كان ذا شجن
لصاحبي وقد زال النـــهار بنا *** هل تؤنسان ببطن الجو من ظعن[٢]

فقول زهير: (هل تؤنسان ببطن الجو من ظعن؟)، جاء في صورة استفهام، لكنه ليس على حقيقته، ولكن المراد منه في هذا البيت الإنكار، فهو ينكر أن تبصر النساء في هوادجهنّ الجو، ولكي يتحقق هذا المعنى؛ فلابد من مراعاة الأداة التنغيمية المستعملة في قراءة البيت.

(١) المرجع السابق، ص١٠٧.

(٢) ديوان زهير، ص١٢٩.

١٠- قوله:

ألم تر للنُعمانِ كان بِنَجْوَةٍ *** من الشرّ لو أن امرأً كان ناجيا[١]

والاستفهام في هذا البيت ليس استفهامًا حقيقيًا؛ وإنما المراد منه التذكير، فهو يذكر بأنه لو كان هناك أحدًا ناجيًا من الشر؛ لكان النعمان، والذي يحدّد المعنى المراد للاستفهام هنا هو التنغيم، فالأداة الصوتية هي التي تحدّد المعنى المراد.

* ومما سبق يتضح جليًا أنّ للتنغيم وظيفة دلالية سياقية؛ حيث ينبئ اختلاف النغمات وفقًا لاختلاف المواقف الاجتماعية؛ عن وجهات النظر الشخصية من رضا وقبول وزجر وتهكم وغضب وتعجب ودهشة ودعاء...الخ، حيث يقوم التنغيم بأداء هذه المعاني بمعونة السياق العام المتعلق بالظروف والمناسبات التي يلقى فيها الكلام[٢].

وبهذا يكون عنصر التنغيم ركنًا أساسيًا في الأداء يتحكّم على نحوٍ واضحٍ في تحديد المعنى وتوجيهه، اعتمادًا على كيفية نطق الجملة وتنغيمها؛ إذ إنّ تغيّر النغمة قد يتبعُهُ تغيّرُ في الدلالة في كثير من اللغات[٣]، إذ هو يضفي على التراكيب المنطوقة معاني إضافية لا يمكن الوصول إليها بمجرد معرفة معاني مفردات هذا التركيب أو ذاك، ولا تفهم غالبًا من تركيب الجملة المكتوبة؛ وإنما تكون طريقةُ نطق تلك التراكيب بصورة تنغيمية مختلفة؛ هي الوسيلة لفهم تلك المعاني الإضافية[٤].

---

(١) المرجع السابق، ص١٤١.

(٢) ينظر: علم الأصوات ٥٣٤ - ٥٤٠.

(٣) ينظر: دلالة الألفاظ، ص٤٧.

(٤) ينظر: التنغيم في التراث العربي، ص٧، والدلالة اللغوية عند العرب، ص١٧٨.

فالدلالات الشفوية غالبًا لا تنحصر في الكلام السابق واللاحق؛ بل تشمل التنغيم والإشارات(١).

وتغيّر التنغيم في الأمثلة المتقدمة يستبطن ويتطلب تغيّرًا في الحالة النفسية والانفعالية للمتكلم؛ لأنّه من غير المنطقيّ أن تكون الحالة الانفعالية للمتكلم في الحالين واحدة، وهذا يؤكّد الإقرار بأثر التنغيم، ودلالته في المعنى.

(١) ينظر: دراسة الصوت اللغوي، ص١٩٥، والبحث الصوتي عند العرب، ص٦٣.

الخاتمة

لقد حظي ديوان زهير بن أبي سُلمى بكثير من المواطن التي يمثّل فيها النبر والتنغيم دورًا هامًا في تحديد المعنى المراد؛ جاءت في صورٍ مختلفة كالتقرير، والتوكيد، والتعجب، والاستفهام، والنفي، والإنكار، والتهكّم، والزجر، وغيرها من أنواع الفعل الإنساني كالغضب، والفرح والحزن، عن طريق التنويع في الدرجات التنغيمية بمستوياتها العليا والمتوسطة والهابطة، والتي من شأنها أن تُعرّف على مواقف المتكلم، وأثر هذه النغمة في اختلاف المعنى من جهة، ودلالة السياق من جهة أخرى.

وأهم نتائج هذا البحث ما يلي:

١- أنّ ديوان زهير بن أبي سُلمى، من أهم دواوين العصر الجاهلي؛ لتنوع موضوعاته، ودقّة ألفاظه، وبلاغة تعبيره.

٢- كثرة الحكم والأمثال، والصّور البلاغية التي تناولها زهير في ديوانه؛ مما جعل النبر والتنغيم يمثّلان دورًا أساسيًا في توضيح معنى الكلام في هذا الديوان.

٣- أنّ النبر والتنغيم – بصفة عامة- ركنين أساسيين في الأداء، لا تخلو منهما أيّ لغة من لغات البشر.

٤- أنّ النبر والتنغيم يُستعملان في العربية -بكثرة – منذ القدم، وفي هذا ردٌ على مَن يدعي أنّ اللغة العربيّة كانت تخلو منهما.

٥- أنّ التنغيم يعدّ ركنًا أساسيًا في الأداء؛ يتحكم على نحو واضح في تحديد المعنى وتوجيهه؛ اعتمادًا على كيفية نطق الجملة، وتنغيمها.

٦- أنّ النبر ليس أقل أثرًا من التنغيم في الكشف عن المعنى الدلاليّ، وذلك أنّ بعض أنواع النبر وهو عنصر صوتيّ يقع على بعض مقاطع الكلمة الواحدة؛ يؤدي دور بعض الوظائف النحوية.

والله وليّ التّوفيق والسّداد والإعانة؛ وهو المستعان وعليه التّكلان،،،.

فهرس المراجع والمصادر

١. القرآن الكريم.
٢. أسس علم اللغة، ماريو باي، تحقيق أحمد مختار عمر، عمان – الأردن، ١٤١٩ هـ/ ١٩٩٨م.
٣. أصوات القرآن كيف نتعلمها ونعلمها، يوسف الخليفة أبو بكر، مكتبة الفكر الإسلامي، ١٩٧٣ – ١٣٩٢.
٤. الأصوات اللغوية، د. إبراهيم أنيس، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦١م.
٥. الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني، دار الفكر – بيروت، الطبعة الثانية، تحقيق: سمير جابر.
٦. البرهان في علوم القرآن، بدر الدين بن أحمد الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار الفكر ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م.
٧. البيان والتبيين، الجاحظ، أبي عثمان عمرو بن بحر، دار صعب – بيروت، الطبعة الأولى ، ١٩٦٨م.
٨. التجويد والأصوات، د. إبراهيم محمد نجا، دار الحديث، ٢٠٠٨م.
٩. تراجم شعراء الموسوعة الشعرية، تم جمعه من الموسوعة الشعرية، الإصدار الثالث.
١٠. التنغيم في التراث العربي، د.عليّان بن محمد الحازمي، بحث منشور في جامعة أم القرى.
١١. الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، حققه محمد على النجار، دار الكتب المصرية ١٣٧٦هـ – ١٩٥٦م.
١٢. دلالة الألفاظ، د. إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الخامسة، ١٩٨٤م.
١٣. دراسة الصوت اللغوي، أحمد مختار عمر، القاهرة، عالم الكتب ١٣٩٦هـ – ١٩٧٦م.
١٤. الدلالة اللغوية عند العرب، عبد الكريم مجاهد، طبعة دار الضياء، الطبعة الأولى.
١٥. الدلالة والنحو، صلاح الدين صالح حسنين، توزيع مكتبة الآداب القاهرة، الطبعة الأولى، د.ت.
١٦. ديوان زهير، زهير بن أبي سلمى، شرح الأستاذ/ علي حسن فاعور، دار الكتب العلمية،

بيروت – لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م، وبشرح حمدو طماس، دار المعرفة.
١٧. الشعر والشعراء، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق :أحمد محمد شاكر، دار المعارف، الطبعة: الثانية.
١٨. علم الأصوات، برتيل مالميرج، تعريب د. عبد الصبور شاهين.
١٩. علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، د. محمود السعران.
٢٠. في البحث الصوتي عند العرب، د.خليل إبراهيم العطية، دار الجاحظ للنشر / بغداد، ١٩٨٣م.
٢١. لسان العرب، ابن منظور، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، دار صادر – بيروت، الطبعة الأولى.
٢٢. اللغة العربية معناها ومبناها، د. تمام حسان، القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب ١٩٧٣م.
٢٣. مجلة الفتح، العدد الرابع والعشرون، ستار فليح حسن، ، ٢٠٠٥، بحث : همزة الاستفهام وخصائصها.
٢٤. مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي، مكتبة لبنان ناشرون – بيروت، ١٤١٥ – ١٩٩٥.
٢٥. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي، المكتبة العلمية – بيروت.
٢٦. معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، د. أحمد مطلوب، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
٢٧. المفارقة القرآنية دراسة في بنية الدلالة، الدكتور محمد العبد، مكتبة الآداب ـــ القاهرة، ط٢ ـــ ١٤٢٦هـ ـــ ٢٠٠٦م.
٢٨. المقتضب، المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة، الناشر: وزارة الأوقاف المجلس الأعلى للشئون الإسلامية لجنة إحياء التراث الإسلامي – القاهرة الطبعة: الأولى ١٤١٥هـ ـــ ١٩٩٤م.
٢٩. مناهج البحث في اللغة، د. تمام حسان، الدار البيضاء، دار الثقافة ١٩٧٤.
٣٠. Maha Mohammed Osman: A Descriptive Analysis of B.Ed Syllabus of English at Sudan Universities.